رسائل تلّغرافيّة
(٨)

بَـــــــلاغ!!!
مَهْمَا كانت الأسبابُ والعللُ
فماذا بعد؟! وإلى أين؟!

بَلَّغَهُ
الفقير
ابن الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من اتّبع الهدىٰ وحَفِظَ اللَّهَ فَحَفِظَهُ، فعَلّمه، وفهّمه، ومَحَىٰ منه الجهالة وبصّره، وطهّر قلبه وصَدْرَه وروحه وعقّله، واستعان باللَّه وتوكّل عليه وأناب إليه فتاب عليه ونوّره، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورىٰ: ٥١-٥٢].

● أهل الشرّ المفسدون في الأرض:

أمّا بعد:

فإن رحىٰ الصراع بين الحق والباطل لا يزال مستمرًّا إلىٰ أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها، قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة إلا علىٰ شرار الناس**»، «**لا تقوم الساعة حتىٰ لا يقال في الأرض: اللَّه اللَّه**» رواهما مسلم في «صحيحه» (**٢٩٤٩، ١٤٨**).

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣١].

وروىٰ البخاري في «صحيحه» (٣) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة: أن ورقة بن نوفل -وكان من نصارىٰ قريش وآمن برسول اللَّه ﷺ- قال لرسول اللَّه ﷺ

لما بُعث بالرسالة: «ليتني أكون حيًّا إذْ يُخرجك قومك، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هم؟!**» قال: نعم لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي».

فهذا قانون سماوي وسُنة كونية لكل الأنبياء والمرسلين، وأتباعهم وأنصارهم إلىٰ يوم القيامة، وهم أهل الحق والفلاح والصلاح، وبهم تنصلح العباد والبلاد، وأهل الباطل والشّر أعداؤهم ومحاربوهم.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١/ ٤٥):

«قوله ﷺ: «**أوَمخرجيّ هم؟!**» استبعد النبيُّ ﷺ أن يخرجوه؛ لأنه لم يكن فيه سبب يقتضي الإخراج، لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق، قوله: «**إلّا عودي**» ذكر ورقة بن نوفل أن العلة في ذلك مجيئه لهم بالانتقال عن مألوفهم، ولأنه علم من الكتب أنهم لا يجيبونه إلىٰ ذلك، وأنّه يلزمه منابذتهم ومعاندتهم، فتنشأ العداوة مِنْ ثَمَّ». اهـ

قلت: ولقد بيّن اللَّه تعالىٰ حال المفسدين الأشرار فقال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، وقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، وقال: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وقال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]، وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾؟! [ص: ٢٨].

قال السعدي في «تفسيره» (ص٢٦٩-٢٧٠):

«يقول تعالىٰ مسليًّا لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وكما جعلنا لك أعداء يردّون دعوتك، ويحاربونك ويحسدونك، فهذه سنتنا أن نجعل لكل نبيّ نرسله إلىٰ الخلق أعداء من شياطين الإنس والجن يقومون بضد ما جاءت به الرسل ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾؛ أي: يزيّن بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتىٰ يجعلوه في أحسن صورة؛ ليغترّ به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة والعبارات المموّهة، فيعتقدون الحقّ باطلًا والباطل حقًّا، ولهذا قال: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٣]؛ أي: تميل إلىٰ ذلك الكلام المزخرف ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة يَحْمِلهم علىٰ ذلك ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولًا، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه، وزيّن في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون؛ أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، وهذه أحوال المغترين بشياطين الإنس والجن المُسْتَجِبِّين لدعوتهم.

وأما أهل الإيمان بالآخرة وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنّهم لا يغترّون بتلك العبارات، ولا تخليهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلىٰ معرفة الحقائق، فينظرون إلىٰ المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقًّا قبلوها وانقادوا إليها، ولو كسيت عبارات رديّة، وألفاظًا غير وافية، وإن كانت باطلًا ردّوها علىٰ من قالها، كائنًا من كان، ولو أُلْبست من العبارات المستحسنة ما هو أرقّ من الحرير.

ومن حكمة اللَّه تعالىٰ في جعله للأنبياء أعداءً وللباطل أنصارًا قائمين بالدعوة

إليه: أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان؛ ليتميّز الصادق من الكاذب والعاقل من الجاهل والبصير من الأعمىٰ.

ومن حكمته: أن في ذلك بيانًا للحق وتوضيحًا له، فإنّ الحقّ يستنير ويتَّضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه -حينئذٍ- يتبيّن من أدلة الحق وشواهده الدالة علىٰ صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيه المتنافسون». اهـ

قلت: وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، **قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٦٧)**:

«أي: هو أعوج المقال، وسيئ الفعال، فذلك قوله وهذا فعله، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأحواله قبيحة.

والسعي هاهنا هو: القصد والعمد مع النية، فهذا المنافق ليس له همة إلا للفساد في الأرض وإهلاك الحرث وهو: محل نماء الزروع والثمار، والنسل وهو: نتاج الحيوانات اللذين لا قِوَام للناس إلا بهما.

وقال مجاهد: إذا سعىٰ في الأرض فسادًا منع اللّه القَطْرَ -المطر- فهلك الحرث والنسل ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾؛ أي: لا يحب مَنْ هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك». اهـ

● البداية بـ«مَهْمَا» بعد البلاغ:

ثم أما بعد:

قال أبو عبد اللّه القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ١٩١-١٩٢):

«قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، قال الخليل: الأصل: ما، ما؛ الأولىٰ للشروط، والثانية زائدة توكيد للجزاء، كما تزاد في سائر الحروف، مثل: إمَّا، وحيثما، وكيفما، وأينما،

فكرهوا حرفين لفظهما واحد، فأبدلوا من الألف الأولىٰ هاء فقالوا: مهما.

وقال الكِسائِيّ: أصله: مَهْ؛ أي: اكفف، ما تأتينا به من آية.

وقيل: هي كلمة مفردة يجازي بها ليُجْزم ما بعدها علىٰ تقدير إنْ». اهـ

وقال في «المعجم الوجيز» (ص٥٩٣):

«(مهما): اسم شرط يجزم فعلين، ويستعمل لغير العاقل، وفي القرآن الكريم . . . ». اهـ، فذكر الآية المذكورة.

لقد بدأت هذه الرسالة بحديث مسلم (**٢٩٤٩**): «**لا تقوم الساعة إلّا علىٰ شرار الناس**»، والمراد من لفظ الحديث علىٰ ظاهره: ستختم الدنيا بشرار الخلق المفسدين في الأرض بعد أن يتوفّىٰ اللَّهُ جميع المؤمنين الموحّدين، فلا يزال الشرّ وأهله إلىٰ قيام الساعة، وتقوم عليهم هم دون غيرهم، وهم أهل الإفساد والتضليل والخراب والدمار، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٤-٤٥]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

لقد فُصِّلت الأمور وأُقيمت الحجج وتُركتم علىٰ البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

● المسلمون والسيل الجرّار من المكائد:

فمنذ أن بُعث رسول اللَّه ﷺ خاتم النبيين والمرسلين وهو في حروب ومكائد وبلاء وفتن، كما قال ورقة بن نوفل رضي الله عنه: «لم يأتِ رجلٌ قطّ بمثل ما جئت به

إلّا عُودِيَ».

فكان ما كان من قريش من العداوة والبغضاء والغيظ والحقد والحسد والاغتيال والإخراج من مكة، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والسيرة النبوية تدلّنا علىٰ ذلك تفصيلًا بكل ما كان، وهذا حال كل الأنبياء والمرسلين من لدن نوح ﷺ إلىٰ رسول اللَّه ﷺ، وانظر قصص الأنبياء في القرآن.

• ثم بعد رسول اللَّه ﷺ وما كان من حرب الردّة مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وما كان من مسيلمة الكذّاب وحرب اليمامة، ثم ما كان من مقتل عمر بن الخطاب، ثم مقتل عثمان رضي الله عنهما، ثم الحروب والمكائد الطاحنة في عهد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حتىٰ قُتل.

• ثم ما كان علىٰ مر العصور والأزمان من الويلات التي حدثت للمسلمين، وعلىٰ رأسها حروب التتار التي مات فيها الملايين التي سدّت جثثهم نهر دجلة والفرات.

• ثم ما كان بعد ذلك -مما قصّه علينا أهل التواريخ-، حتىٰ ظل المسلمون في مائتي عام في ذبح وتشريد وعذاب وعدوان، حتىٰ قيّض اللَّه صلاح الدين لصلاح الأمة.

• ثم ما كان علىٰ الأمة من الاحتلال العالمي الإنجليز والفرنسيين وغيرهم في مصر والقارة الإفريقية، ثم ما كان من الاحتلال اليهودي لفلسطين وبداية الذبح والدمار.

• ثم ما كان من ملايين القتلىٰ والموتىٰ والجائعين والمرضىٰ والمشردين والمهلكين بين القنابل والرصاص والصواريخ والدمار الشامل في سوريا، واليمن، وليبيا، والملايين من القتلىٰ والمرضىٰ والجائعين في نهاية حكم صدّام

في العراق، وزرع الشيعة المجرمين في العراق السُّنِّي حتىٰ صار الشيعة يحكمون العراق وسوريا ولبنان واليمن، وتذبيح الحوثيين لليمنيين، حتىٰ كادت الأمة الإسلامية أن تهلك عن بكرة أبيها، حتىٰ تفككت البلاد وهلكت الجيوش العربية، وأصبحت أثرًا بعد العين، ونُهبت خيراتُها، وسلبت مواردها وبترولها والخزائن الأرضية التي تقوم عليها الصناعات وشئون الناس.

● ثم الطامة الكبرىٰ في تجْفيف الأنهار وسرقة المياه وسلبها، وما كان من سد النهضة والرغبة العارمة في تخريب العباد والبلاد في مصر، واضطراب الأمور والأحوال.

● ثم كان ما كان في هذا الوباء العالمي المدمّر القاتل الذي زلزل الناس أجمعين، حتىٰ سمعنا وقرأنا وشاهدنا ما وصفه الخبراء من السياسيين والحكام والاقتصاديين والوزراء، والحكام في غالب الدول الأجنبية؛ إذْ وصف هذا الوباء بأنه حرب عالمية ثالثة، فعلىٰ آخر إحصائيات منظمة الصحة العالمية، أن فيروس كورونا أصاب مليونين وأكثر، ومات (٢٨٤) ألف نفس بشرية.

فالموتىٰ في هذا الوباء بدون حرب معلنة ظاهرة!!

فإن الأوبئة والطواعين السالفة، كانت تكون في بلد ما دون غيرها، أما اليوم فهو وباء عام شامل لكل دول العالم!!!مما يجعل العقلاء يتدبرون ويتفكرون.

● وقد قيل: إن أمريكا وحدها مات فيها (٥٠) ألفًا، واللَّه أعلم بالأرقام وحقيقتها وحالها، ومن وراء هذا الطاعون الخبيث الماكر المدمّر للعباد والبلاد؟! وما صفته وكنهه؟! وكيف هو؟! وكيف عمّ العالم كله؟! وهل هو حرب بيولوجية صنعها أهل الشر المفسدون المخربون في الأرض الذين لا يرقبون في الناس إلَّا ولا ذمة؟! فأرادوا حربًا عالمية واسعة تؤدي إلىٰ هلاك غالب الناس؛ مع وجود المليارات من البشرية الذين يأكلون ويشربون ويزرعون ويصنعون ويتاجرون ويعيشون، وذلك لقلة الموارد وكثرة الناس والشح في العرض وكثرة

الطلب، فأصبح الناس في صراعات الموت والحكم للأقوىٰ، ولو أدّىٰ ذلك لهلاك البشرية؟! وهل الذي حدث للمسلمين في بورما، والفلبين وكشمير والهند والبوسنة والهرسك وكوسوفا، وما حدث في طوفان تسونامي **٢٦** ديسمبر (**٢٠٠٤**م)، والذي راح ضحيتها ما يقارب (**٣٠٠,٠٠٠**) ثلاثمائة ألف من البشر، وتكبّدت إندونيسيا أعلىٰ نسبة من الخسائر في الممتلكات والضحايا، وهل هي مُصْطَنعة من قَبْلُ علىٰ ما ذكرت آنفًا؟! وما حدث مثله في اليابان؟! وإعصار الصين الرهيب؟! وقد رأيت هذا كله، وهو مبثوث علىٰ شبكات النتّ، ومنها زلازل وإعصارات.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] هذا منهج أهل السنة والجماعة بلا خلاف، وإنما السياق هنا عن الكوارث المصنوعة من شياطين الإنس والجنّ، وما كان منهم من الصنْعَة البيولوجية التي يسعىٰ أصحابها في خراب الدنيا، بما عندهم من العلوم الإبليسية التي يستخدمها أهل الشرّ في الصراع بين الحياة والموت، ومن الذي يقدر ويقود ومن الذي يهلك ويدمر؟!

وبالفعل حدث هذا السجال اليوم بين الصين وأمريكا في شأن مَن المتسبّب في كورونا؟! وكل من الدولتين تتهم الأخرىٰ، ولا يخفىٰ علينا ما صنعته أمريكا في هوروشيما وناجازاكي في اليابان.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فلا يكون في مُلك اللَّه ﷻ إلا ما يريد ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، فسواء أحدث هذا أهل الشرّ وتسببوا فيه قصدًا وعمدًا ونيّة للإفساد، أم هو غضب من اللَّه علينا وسخط؟! حتىٰ يرجع الناس إلىٰ اللَّه؟

وفي كلا الحالتين هو مما قدّمت أيدينا ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، فلا تخفىٰ علينا الأسباب والعلل الأم والأصل الرئيس في هذه الآية الكريمة من سورة الروم.

● **فماذا بعد؟!**

هذا سؤال مهم جدًّا ولابد من الردّ عليه بعدما حَشَدْتُ لك العلل والأسباب، فلقد ذكرت لكم جملة من المقالات في خلال شهرين تقريبًا عن أحوال الأمة والناس من بداية حدوث هذا الوباء.

والآن توجّب أن نعلم ماذا بعد، وكيف نفعل؟!

● **بيان ذكر جملة من الدعائم التي تستقر بها الأمور:**

أقول: فزيادة علىٰ ما فصّلت في المقالات: إنه قد افترِض علينا وجوب الاهتمام العيني علىٰ كل من مُهِّد له، من أمور الحياة الكلية لصلاح العباد والبلاد، من معرفة العلوم التقنية والتكنولوجية، والبيولوجية، ووسائل الاتصالات الحديثة من شبكات النتّ، والأقمار الصناعية، ومعرفة دقائق التفاصيل بالإلمام بمسائل كل العلوم التي تقوم عليها الحياة الدنيا، من إدراك الشئون والتميّز والتخصص فيها، من علوم الذرة والكيمياء، والطاقة والكهرباء، والمياه، وشئون البيئة، وعلم الفيروسات بتخصص وإحكام، وعلوم الاجتماع والأفكار الجديدة المتطورة، والإبداع في الصناعات والتجارات، والوسائل الاستخباراتية، والشئون العسكرية التي هي عصب الحماية والأمان، والوعي الشديد بكل المجالات، وتصحيح المفاهيم وحسن التصور الواسع السليم في كل الأمور، وإتقان العمل والصدق والأمانة، وهي من أهم الأخلاق التي تنمو بها الصناعات والتجارات والاقتصاد كله، وكذلك تنمية الوعي الإعلامي الذي يؤثّر تأثيرًا كليًّا علىٰ أحوال البلاد استقرارًا وأمْنًا، ومن أهم العلوم علم التخصص الذي يثمر التميز والتفوق والنجاح، والذي تقوم عليه الدول الكبرىٰ، فمن الذي يتكلم اليوم في العالم في هذا الوباء؟ هم علماء الكيمياء بشكلٍ عام، ودائمًا يخرج من كليات العلوم عباقرة تتعطش إليهم الدول الكبرىٰ فضلًا عن الصغرىٰ،

وبكل ما ذكرت، ويقاس عليه مثله، تقوم الدول من كبواتها في زمان البلاء والفتن والأوبئة، وكل ذلك بالعلم والتعلّم والاهتمام كل الاهتمام بزرع كل ذلك في صدور وعقول الأجيال من الطفولة المبكرة، إلىٰ الصبيانية ثم البلوغ، ثم الشباب حتىٰ التخرّج من الكليات والدراسات العليا ورسالات الجامعات من الماجستير والدكتوراة، في كل العلوم والتخصصات علىٰ اختلاف أنواعها وفروعها.

وكذلك الاهتمام بتطوير منظومة الفهم وعُلُوّ درجات الذكاء عند الشباب والصغار، ومن أهم العلوم: التفقه في الدين، وممارسة العلوم الشرعية التي تستقيم بها الدنيا والدين، قال ﷺ: «**من يُرد اللَّه به خيرًا يُفقّهه في الدين**» رواه البخاري (٧١).

● وهذا الذي ذكرته آنفًا ينبغي أن يكون بشكل عام في كلّ الدول الإسلامية؛ إذْ لا يقوم بذلك إلا الحكومات والسلطات العامة وأهل الشوكة، وأهل الحلّ والعقد، من كل المجالات التي تُسَيَّرُ بها شئون الدول وأنظمتها وما لها من الإمكانيات والقدرات التي تُلْزم بها الشعوب والمجتمعات، وهذا من باب هذه القاعدة الكلية التي نصها: «**ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب**»، وقاعدة: «**جلب المصالح ودفع المفاسد**»، وقاعدة: «**الفرض الكفائي والفرض العيني**»، وبيان كل منهما، وقاعدة: «**تعارض المصالح وتقديم الأهم فالمهم**»، وقاعدة: «**إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما بارتكاب أخفهما**»، وقاعدة: «**يُتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام**»، وقاعدة: «**ما أُبيح للضرورة يقدر بقدرها**»، والقاعدة الكلية: «**تصرف الإمام علىٰ الرعية منوط بالمصلحة**»، والقاعدة الأم: «**كل ما لا يتم المعاش إلا به فتحريمه حرج وهو منتفٍ شرعًا**»، والقاعدة المتفق عليها: «**الحكم يدور مع علّته وجودًا وعدمًا**»، وفيها مراعاة المصلحة العامة في غلق المساجد -حتىٰ ترتفع العلّة- مع استمرار الوباء الخبيث، وقاعدة: «**الفهم المصْلحي القائم علىٰ الدليل الشرعي ومراعاة درجات المصلحة والمفسدة**

وحسن **التصوّر في ذلك**»، وقاعدة: «**الرخص الشرعية المعتبرة بالحجة والدليل**»، وقاعدة: «**التكافل الاجتماعي**»، وتطوير منظومة الإحصاء في ضبط أعداد الفقراء لحسن صرف الزكاة علىٰ المستحقين، وكذلك أعداد البطالة والعاملين وغير العاملين، وأيضًا معرفة أعداد الأمّيّين والجهّال والسعي في تعليمهم وتثقيفهم، وهم كثيرٌ وأعدادهم كثيرة، وهي خطوة مهمة في نشر الوعي وتقليل الجهل ونمو منظومة التعليم في هذا السياق الحيوي، الذي تتميز به الدول المتقدمة بما تنصلح به أحوالها.

- **ومدار الشأن في هذا السياق على المعاملات الحسنة الطيّبة وبيان الفقه في ذلك:**

قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

ومن أجمع ما قرأت في هذه الآية تفسير السعدي حيث قال في «تيسير الكريم الرحمن» (ص٥٦٥):

«كل خبيث من الرجال والنساء والكلمات والأفعال، مناسب للخبيث وموافق له ومقترن به ومشاكل له، وكل طيّب من الرجال والنساء والكلمات والأفعال، مناسب للطيّب وموافق له ومقترن به ومشاكل له.

فهذه كلمة عامةٌ وحصرٌ، لا يخرجُ منه شيء». اهـ

قلت: وإنما اخترت هذا التفسير؛ لكلّيّته وعمومه المحيط بكل مفردات هذه الآية، وأن اللفظ المشترك لابد من حمله علىٰ جميع معانيه، ما لم يرد دليل يحمله علىٰ مُراد مُعيّن، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعليه أتيت بهذا التفسير، وذلك لأن الزوج والزوجة أصلُ الدنيا؛ فإنْ صَلَحَا صلح الدين والدنيا.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

قال السعدي في «تفسيره» علىٰ هذه الآية (ص٤٦٥):

«أي: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الناس ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾؛ أي: علىٰ ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار لم يشاكلهم إلا عَمَلُهم لربّ العالمين، ومن كان من غيرهم من المخذولين، لم يناسبهم إلّا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلّا ما وافق أغراضهم، ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ فيعلم من يَصْلُحُ للهداية فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخْذُلُه ولا يهديه». اهـ

قلت: فقبل أن نتكلّم علىٰ ضرورة غرز العلوم في الأولاد والأجيال والنظر إلىٰ إصلاحهم قلوبًا وصدورًا وأنفسًا وتعلّمًا وقولًا وعملًا وتصرفًا، فلابد أن تصلح أنتَ وأنا، وأنتِ وهي، الزوج والزوجة، والرجال والنساء، كلهم يصلح نفسه وصدره وقلبه وأخلاقه ومعاملاته ودينه؛ لأنكما كزوج وزوجة الأصل والدعامة التي تفرّع منها الأولاد؛ إذْ كل مولود يُنْشِئُ أسرةً تتفرّع منها أجيال، وما بُني علىٰ حق فهو حق، وما بُني علىٰ باطل فهو باطل، وهكذا كل البلاد والمجتمعات والأُسَر، وذلك كله يثمر الأوطان الفاضلة، وهنا موطن الداء والدواء.

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة في «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٣٦٣):

«فمن بنىٰ الكلام في علم الأصول والفروع علىٰ الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين فقد أصاب طريق النبوّة». اهـ.

وطريق النبوة هو سبيل الحق والنجاة والفلاح والصلاح والفوز في الدنيا والآخرة، وبهذا يهتدي المهتدون ويسدّد ويوفق الموفّقون.

• ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ [يونس: ٣٥].

وقال اللَّه تعالىٰ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٧٢):

«وكان أبو العالية يقول: في هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن، وقوله: ﴿بِإِذۡنِهِۦۗ﴾؛ أي: بعلمه بما هداهم له ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ من خلقه، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾؛ أي: وله الحُكم والحجة البالغة.

وفي «صحيح مسلم» [٧٧٠] عن عائشة: أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «**اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم**».

وفي الدعاء المأثور: اللهم أرنا الحقّ حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا ووفقنا لاجتنابه، ولا تجْعله ملبّسًا علينافنضلّ، واجعلنا للمتقين إمامًا». اهـ

انتهى البلاغ

بلَّغه

الفقير إلى ربِّه

ابن الكيَّال